مع مجهض النساء

الزهرى أو مرض الفرنجة

يقال إن الزهرى فى الأصل مرض أمريكى خلا منه العالم القديم الى أن اكتشفت أمريكا فنقله رجال كولمبس منها إلى اسبانيا ثم وصل إلى نابولى مع جيش شارلس الثامن اثناء الحملة الكبيرة التى قام بها هذا العاهل الفرنسى وحشد فيها جيشاً كبيراً من الفرنسيين والألمان والمجريين والبولنديين والسويسريين والاسپانيين والبرتغاليين . ولم يلق هذا الجيش العرمرم مقاومة كبيرة فى نابولى إذ فر ملكها وسلمت المدينة فى مايو عام ١٤٩٤ .

كانت نابولى فى ذلك الوقت مدينة كبيرة مرحة جمعت بين أجود الخمور وأجمل النساء ولم تكن الآداب العامة فيها على درجة كبيرة من الكمال وكان جل ما اهتم به الأهالى المتعة والمسائل الجنسية، ولم يقتصر المجون على عامة الشعب بل شمل الملوك والأمراء والكبراء بل والكهنة وغيرهم من رجال

الدين، ولم يكن غريبا أن يجمع أحد القساوسة فى منزله ما يسميه الغربيون «بالحريم» عندما يحلو لهم التهكم على الشرقيين فكثر الأولاد غير الشرعيين وانتشرت منازل الدعارة التي اعتبرت في ذلك الوقت منازل محترمة يؤمها علية القوم وسادتهم . ويقال إن البابا «سكتس» لم يمانع في أن يستغل الحكام هذا المركز الشاذ إذ بنوا دارا كبيرة للدعارة تأوى أكثر من عشرة آلاف من المومسات فرضت على كل منهن ضريبة درت على الخزانة دخلا كبيرا ، بل ويقال إنهم لم يأنفوا أن يجعلوا من الدور السفلى للمدارس مأوى للعاهرات . وكذلك اتخذ القوم من الحمامات العامة نوادى للهو والتسلية ينتشرون فيها عرايا يختلط الحابل بالنابل مجددين عهد الرومان وما اتصف به من خلاعة ومجون

كان هذا حال نابولى حين وصلها جيش شارل الثامن فلا عجب ان عاث جنوده فيها فسادا وتمادوا فى اللهو والمرح ولو أن مرحهم هذا لم يدم طويلا اذ اتحد الملك والبابا ودوج فينيسيا وملك اسبانيا وطردوا الجيش الفاتح فلم تزد مدة احتلاله لهذه المدينة عن بضعة اسابيع كان لها أكبر الأثر فى تاريخ الطب اذ انتشر مرض جديد سماه الفرنسيون «مرض نابولى»

obeikandi.com

وسماه أهالى نابولى « المرض الفرنسي » ولسبب غير معروف انتشر الاسم الثانى دون الأول وهو لا يزال معروفا عند العرب « بمرض الفرنجة » وكلمة فرنجة مشتقة فى الأصل من كلمة فرنسى .

كان المرض الفرنسى فى أول عهده بالأوروبيين يفتك بهم فتكا ذريعاً وكان شديد الوطأة الى حد بعيد لدرجة أن سماه الانجليز « الجدرى الكبير » (The big pox) مما يفهم منه أنهم شبهوه بمرض الجدرى (smallpox) الذى اعتبر على شدته أخف وطأة من المرض الجديد .

ومع توالى السنين خفت وطأة المرض وفى الوقت نفسه زاد انتشاره . شأنه فى ذلك شأن معظم الأمراض المعدية التى ان حلت ببلد لم يعرف عدواها من قبل اشتدت وطأتها على سكانه اذ تعوزهم المناعة التى يتمتع بها الأهالى فى وطن المرض الذى حل به منذ عهد بعيد وأوضح مثل على ذلك ما نعرفه عن الحمى الصفراء التى استوطنت غرب افريقيا وأصبح الأهالى فيها لا يتأثرون منها أكثر مما يتأثر الانسان من انفلونزا بسيطة فاذا ما وصلت بلادا أخرى جديدة حصدت فيها الناس حصدا

وعلى النقيض من ذلك مرض السل فهو لندرته فى السودان مثلا شديد الوطأة على السودانيين سريع جدا في مجراه قد يقتل المريض فى شهرين أو ثلاثه بينما هو فى الأوروبيين الذين انتشر بينهم السنين الطوال بطىء خفيف نسبيا قد يعيش المصاب به سنين طويلة وربما قضى عليه مرض آخر قبل أن يقضى السل عليه .

لم يرق للفرنسيين اسم «المرض الفرنسى» فاقترح أحدهم تسميته «مرض ڤينوس» وڤينوس كما يعرف الجميع إلهة الحب ، ولكن هذا الاسم أيضاً لم يصادف قبولا ولو أن الأمراض السرية على العموم تعرف عند الغربيين باسم « ڤينيريال » (Venereal diseases) نسبة الى ڤينوس إلهة الحب

أما فى انجلترا فقد أطلقوا عليه كما اسلفنا اسم الجدرى الكبير وقد أشار اليه شكسبير فى رواية هملت إذ سأل هملت عاملا باحدى الجبانات السؤال الآتى : « بعدكم من الوقت تتعفن جثة المتوفى ؟ » فأجاب الرجل بأن هناك أجساما تعفنت قبل الموت لاصابتها بالجدرى الكبير

وقد اقترح بعض الناس تسمية هذا المرض بمرض أيوب لاصابة أيوب بتقرحات معجوبة بطفح جلدى يظهر من

وصفها أنها كانت في الغالب إصابة زهرية ولعل هناك علاقة بين ماذكرنا وبين مانسمعه من العامة عن استعمال مايسمونه «درع أيوب» في علاج هذا المرض ، ولعل عبارة «صبر أيوب» المستعملة في الدلالة على المقدرة على الصبر وقوة الاحتمال ترمز إلى ماتحمله أيوب من العذاب بسبب اصابته بهذا المرض

أُهمل اسم مرض أيوب كما أُهمل اسم مرض فينوس من قبل . أما الاسم الافرنجي « سيفليس » فيرجع أصله على مايقال الى أن شاعرا من فيرونا يدعى «جيرولومو فراكستورو» نظم عام ١٥٣٠ قصيدة عن المرض الفرنسي وصف فيها راعيا يدعى سيفليس كان يعبد الاله الكيثوس بدلا من الاله الشمس فأصابه الأخير بالمرض انتقاماً منه .

وعندما وصل الزهري الى أوروبا بدأ ينتشر بين الطبقات الفقيرة اذ أتى اليها من أمريكا مع الطبقات الفقيرة ولكنه مالبث أن وصل الى أرقى الطبقات فلم يسلم منه احد حتى الملوك والأمراء . وان كان شارلس الثامن الذي قلنا إن المرض انتشر بين جنوده قد سلم منه فقد أصيب به نجله فرنسيس الذي ظل متأثرا به طول حياته .

كان فرنسيس هذا ملكا خليعاً محباً للهو مغرما بمجالسة النساء شديد الولع بهن ويقال إنه أخذ العدوى من صديقة له كانت على جانب كبير من الجمال ولها صورة شهيرة تسمى « La Belle Forniere » لازالت محفوظة الى يومنا هذا فى متحف اللوفر فى باريس ويقال إن زوج هذه المرأة لما علم بصلتها بالملك أراد أن ينتقم منها ومن الملك فأخذ يتردد على منازل الدعارة متعمدا أخذ العدوى كى ينقلها الى زوجه وهى بدورها تنقلها الى الملك وقد تحقق ماتمنى إذ أصيب هو وزوجه والملك بالزهرى ثم تحسنت حالة الرجل وماتت الزوجة ولازم المرض الملك طول حياته ، ويشاهد عشرات الآلاف من الناس صورة هذه المرأة فى متحف اللوفر ولكن القليل منهم من يعرف أنها المرأة التى هدمت حياة فرنسيس وربما كانت السبب فى تغيير تاريخ فرنسا بأجمعها فقد كان فرنسيس شجاعا طموحا محباً لبلاده ، أراد أن يجعل منها امبراطورية عظيمة فاشتبك فى عدة معارك مع شارلس الخامس ملك اسبانيا إلا أنه كان فى كل منها يبوء بالهزيمة والفشل وكان من أكبر عوامل فشله حبه للهو واصابته بمرض الزهرى الذى وصلت أخباره الى خصمه عن طريق

جواسيسه الذين بثهم فى فرنسا فاستغل ضعفه أكبر استغلال.

حاول الأطباء علاج فرنسيس فاستعملوا الزئبق فى أول الأمر وهو علاج قيم قديم ليس أدل على قيمته من أنه مستعمل إلى يومنا هذا، ثم استعملوا الجوايا كم الذى قالوا عنه فى ذلك الوقت إن له تأثيرا نوعيا على مرض الزهرى وبالغوا فى الاشادة به حتى أن الملك لكى يحصل عليه كان يرسل قبطانه « دي بزرتس » الى البرازيل خصيصاً لاحضاره ومع ذلك فقد ساءت حالة المريض وتبدلت من سيء إلى أسوأ واصبح مسرفاً مستهتراً ضيق الصدر سيء التصرف، وكلها صفات نعرف الآن عنها انها إن وجدت فى شخص لم يتصف بها من قبل دلت على احتمال اصابته بالزهرى ثم على وصول المرض إلى الجهاز العصبي.

واصابة هذا الجهاز كمضاعفة للزهرى كثيرا ما تحدث خصوصا عند الغربيين وتظهر أعراضها بعد بضع سنين من بدء العدوى ومن أهم هذه الأعراض مايسمونه بجنون العظمة فيصبح الشخص مسرفا مستهترا مهملا مغرورا، ويعلل بعض الغربيين انتشار هذه المضاعفة بينهم دون الشرقيين ولا سيما

الأميين منهم الى طرق معيشة الغربيين التي يترتب عليها إجهاد الفكر المتواصل مما يضعف مقاومة الجهاز العصبي بعكس الشرقيين غير المتعلمين الذين يقولون عنهم انهم يعيشون عيشة سهلة لا تحتاج الى كثير من اجهاد الفكر أو شحذ القريحة ؛ وهو تعليل سخيف وفي رأينا أن ندرة هذه المضاعفة بين الشرقيين ترجع الى أن جرثومة المرض المنتشرة بينهم من النوع الذي قل أن يصيب الجهاز العصبي ومما يؤيد ذلك مانعرفه عن مرض شبيه بالزهري يدعى « فرمبيزيا » منتشر في بعض المناطق الحارة تشبه جرثومته جرثومة الزهري إلى حد كبير وتصيب الجلد ولا تصيب سواه .

لما أعيت فرنسيس الحيل بعد أن توالت هزائمه أمام خصمه العتيد فكر آخر الأمر في البحث عن حليف يشد أزره فوجه نظره شطر انجلترا ودعا ملكها هنري الثامن لزيارة باريس زيارة رسمية . ومبالغة في اكرامه وحرصا على راحته في هذه الزيارة القصيرة بنى له قصرا فخما أنيقا أثثه بأفخر الأثاث ، ووجد فيه العاهل الانجليزي من مظاهر العظمة والأبهة ما بهر عينيه ، وأقيمت الحفلات الشائقة التي حرص فرنسيس على أن

يدعو اليها أجمل النساء لما عرفه عن هنرى من الولع بجمالستهن .

ويقال إن هذه الزيارة التى لم تدم أكثر من بضعة أسابيع كلفت الدولة مبالغ طائلة فى وقت كانت فرنسا فيه على وشك الافلاس وأحوج ما تكون الى المال . ومع ذلك فان العاهل الانجليزي غادر باريس بعد أن عانق زميله الفرنسى عناقا حارا ثم انقطعت الصلة بينهما وكأن الزيارة لم تكن ، فذهب كل ذلك المجهود وتلك الأموال الطائلة أدراج الرياح وفشل مشروع فرنسيس فشلا ذريعا بل وتحالف هنرى مع خصمه شارلس الخامس الذى كان أوسع حيلة وأكثر ذكاء من فرنسيس إذ لجأ فى سبيل الوصول الى هذا التحالف الى طريقة عملية كلفته القليل من المال وهى أنه أرسل عملاءه الى انجلترا فرشوا « الكردينال ولسي » (Wolsey) كبير وزراء هنرى وحظوا بمعاهدة تحالف بين شارلس وهنرى لم تكلف الأول شيئا يذكر بالنسبة لما بذله فرنسيس من الأموال الطائلة .

أخيرا مات الملك فرنسيس متأثرا بمرضه وكتبوا على قبره « هنا يرقد الملك فرنسيس الذي مات من الزهرى عام ١٥٧٤ » .

والآن لنعد الى هنرى الثامن ملك انجلترا فانه تقلد الملك ولم يبلغ الثامنة عشر من عمره وكان قويا ذكيا رياضيا شجاعا وكان من المنظور أن تزدهر بريطانيا فى عهده لولا مرض الزهرى الذى تدل كل الشواهد على أنه أصيب به والذى كان له أكبر الأثر على حياته الخاصة وعلى طريقة حكمه

تزوج هنرى من اميرة اسبانية تدعى كاترين وولد لهما بعد سنة من هذا الزواج طفل ميت ثم اعقبه خمسة ، منهم من ولد ميتا ومنهم من عاش بضعة أسابيع أو أشهر ثم توفى هزيلا ممسوخاً مشوهاً ، ولن يحتاج القارىء الى اجهاد فكره كثيرا لكى يستنتج من ذلك أن أحد الوالدين (أو كليهما) كان مصابا بالزهرى . وأخيرا حدث كما حدث كثيرا فى مثل هذه الأحوال أن ولدت لهما طفلة قدر لها أن تعيش مطبوعة بطابع هذا المرض الوراثي . سميت الطفلة «مارى» وعنى بتربيتها حتى تخطت سن الطفولة ثم سن المراهقة إلا أنها سرعان ما هرمت وتجعد جلدها قبل الأوان وساءت طباعها فطغت وبغت حتى سميت «مارى السفاحة» (Bloody Queen Mary) ، وكل هذه الصفات سمات تمت إلى مرضها الوراثى بصلة كبيرة .

كان هنرى قبل ولادة مارى يفكر في طلاق زوجه لكثرة اجهاضها ظنا منه أن العيب عيبها ، وقد شجعه على ذلك رئيس وزرائه الكردينال ولسي ، إلا أن ولادة مارى التى أحبها حبا جما أجلت هذا الطلاق بضع سنوات أجهضت الملكة أثناءها عدة مرات كان آخرها ولادة ذكر ميت ، فلم يطق هنرى بعد ذلك صبرا وضاق بزوجه ذرعا ووطد العزم هذه المرة على طلاقها بحجة أنها فشلت فى أهم واجباتها كملكة وهى أن تنجب ذكرا يرث العرش .

أرسل هنرى للبابا يستأذنه فى الطلاق ولكن البابا رغم صداقته له لم يوافق ، ولعل ذلك كان خشية اغضاب شارلس الخامس ملك إسبانيا ، فضرب هنرى بهذا الرفض عرض الحائط وقطع علاقته بالبابا بل وأغاق أديرة الكاثوليك فى بلاده وصادر أملاكهم وكان من قبل يعطف عليهم ويشملهم برعايته وحمايته وكثيرا ما ناصرهم ضد لوثر زعيم جماعة البروتستانت حتى كافأه البابا على ذلك بمنحه لقب حامى الايمان (Defender of the Faith) . فلما رفض البابا الموافقة على الطلاق وقلب هنرى له ظهر المجن سحب البابا منه هذا اللقب واشتد الخلاف بين

الاثنين وتم طلاق كاترين رغم معارضة البابا على يد كرامر — رغم معارضة البابا — رئيس الأساقفة فى ذلك الوقت .

تزوج هنرى بعد ذلك من آن بولين (Anne Boleyn) كريمة أحد نبلاء الانجليز وكانت لا تزال فى السادسة عشر من عمرها على جانب كبير من الجمال . وكان هنرى فى الأصل عشيق شقيقتها الكبرى . إلا أنه لما جدّ الجد وقع اختياره على الصغرى ، ولم يكن ذلك كما سنرى لحسن حظها أو لسوء طالع الكبرى .

وحملت منه الملكة الجديدة عدة مرات وكانت كزوجه الأولى تجهض كل مرة مما أثار غضبه وجعله يقول « كم من النساء سأتزوج لكي أنجب وريثاً للعرش ؟ » .

لا يرتاب من يقرأ هذا التاريخ فى أن الذنب هو ذنب هنرى لا ذنب زوجتيه فما لاشك فيه أنه كان مصاباً بالزهرى وأن زوجاته كن ضحية مرضه ولعله لم يكن يعلم ذلك أو على الأقل لم يكن ليعترف به .

ثار على زوجه الثانية ووطد العزم على أن يتخلص منها هى أيضاً وساعده على ذلك أن وشى اليه واش أنها تخونه فأمر

بمحاكمتها أمام محكمة البلاط التى كانت وقتئذ تتألف من خمسة وعشرين أميرا وأكبر الظن أنها كانت محاكمة صورية، وعلى اى حال فقد انتهت بادانتها والحكم باعدامها ونفذ الحكم بفصل رأسها كما كان متبعاً فى ذلك الوقت

تزوج هنرى بعد ذلك عدة مرات فلم تكن زوجاته اللاحقات أوفر حظاً من السابقات

مما سبق يتضح أن مرض الزهرى كان السبب فى شقاء أو قتل زوجات هنرى الثامن كما كان السبب فى شقائه هو أيضا وكان له أكبر الأثر فى تصرفاته وطريقة حكمه ولا نبالغ إذا قلنا إنه غيّر تاريخ انجلترا بأجمعها

ويقال إنه قد أصيب بالزهرى غير من ذكرنا من عظماء الرجال البابا يوليوس الثانى (Julius II) كما أصيب به كاتب كبير من كتاب الألمان يدعى «أولريش فون هتن» الذي كتب عن هذا المرض عدة كتب ورسائل وصف فى بعضها علاماته كما شاهدها فى نفسه . ومما كتبه رسالة سماها « الموت خاتمة الآلام » وأخرى سماها « صلاة لشفاء قدم مريض » نعى فيها سوء طالعه لما لحق قدمه من العجز والضعف — ولعل ذلك كان

نتيجة اصابته بالزهرى — فعاقه ذلك عن الالتحاق بجيش إمبراطوره مكسميليان الذى أحبه هتن حبا جما والذى كان وقتئذ مشتبكا فى حرب ضروس مع جيش فينيسيا .

كتب هتن أيضا كتابا ضخما عن « المرض الفرنسى » أو الزهرى وقد كان كتابا جامعاً قد يظن قارئه أنه من عمل رجل تعلم الطب ومارسه مدة طويلة ، وقد أخذ عنه الأطباء كثيرا ولو أنهم لم يعترفوا بمؤلفه وظل كتابه فترة طويلة حجة ومرجعا هاماً لهذا المرض وعلاجه .

ومما ذكره عن العلاج استعمال مراهم الزئبق وحمامات البخار الشديدة الحرارة وكان من رأيه ان أكثر ما أفاده شخصيا هو صمغ الجواياكم الذى سبق أن ذكرنا أن الملك فرنسيس قد نُصح له باستعماله وكان يوفد خصيصا من يأتى له به من البرازيل .

وقد وصف فى هذا الكتاب طريقة للعلاج طويلة عقيمة تستغرق أربعين يوما وتتلخص فيما يأتى :

يأخذ المريض الجواياكم يوميا فى الصباح وحمامات البخار الشديدة الحرارة فى المساء ويعيش طول هذه المدة على الزيت

والخبز فقط وأكبر الظن أن كثيرين من المرضى كانوا يفضلون المرض على هذا العلاج المضنى .

لم يقتصر «هتن» في كتبه ورسائله على الموضوعات الطبية بل كتب أيضاً عن المسائل الاجتماعية والسياسية وكانت له آراء تدل على الذكاء وبعد النظر . منها مانصح به من اتحاد الولايات الألمانية كلها تحت علم واحد وإدارة واحدة وملك واحد كى يحسم النزاع بينها ويعظم شأنها ويخشى بأسها وتصبح قوة لا يستهان بها وهذه الفكرة وإن كانت لم تتحقق فى عهده فقد تحققت بعد وفاته بمئات السنين على يد بسمارك الذى بتنفيذه إياها جعل ألمانيا من أكبر دول أوروبا وأعظمها شأناً

ذاع صيت هتن وانتشرت كتبه انتشاراً عظيما وكثر المعجبون به من كل طبقة وكان من أشد الناس اعجابا به رئيس أساقفة براندنبرج الذى شمله بعطفه ووضعه تحت رعايته ولو أن ذلك لم يدم طويلا إذ تغيرت طباع هتن واتابته الكآبة وأصبح شرس الطبع ضيق الصدر لاذع القلم مر اللسان قاسيا على أعدائه وأصدقائه على السواء حتى أنه أظهر يوما رغبته فى الانضمام إلى لوثر زعيم البروتستانت فلم يأبه لوثر به لما عرفه

عنه من التقلب والشذوذ ، ولو أنه أظهر هذه الرغبة قبل ذلك ببضعة أشهر لرحب به لوثر كل الترحيب واعتبره كسبا عظيما لقضيته ومبادئه .

هاجم هتن الجميع ولم يسلم البابا نفسه من قلمه ولسانه وأخيرا طرده رئيس الأساقفة وتخلى عنه أصدقاؤه وغادر بلاده هائما على وجهه شريدا لا يستقر فى مكان حتى انتهى به المطاف إلى زيوريخ وكان فى حالة اعياء شديد وفقر مدقع واشتد عليه المرض ثم قضى نحبه ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره بعد أن لازمه المرض خمسة عشر عاما . وهكذا فشل علاجه الذى طالما أشاد به والذى ذاق منه الأمرين

وهناك أيضا الكاتب الألمانى الشهير « نيتشه » الذى تدل كل الشواهد على أنه كان من ضحايا هذا المرض فقد عُرف فى أول حياته بتوقد الذهن وحدة الذكاء ، وقد رفعته مؤلفاته إلى أسمى الدرجات ولا زال الكثيرون منا يذكرون ما كتبه عما سماه « السوبرمان » (Superman) وهو كما يدل عليه اسمه الرجل الفذ الذى يسمو عن باقى الرجال ، ولا فرق بين كلمة السوبرمان وكلمة السوبرريس (Super race) أو العنصر الفذ التى طالما تشدق بها

يعض الألمانيين إلا فى أن الكلمة الأولى تشير إلى الشخص والثانية إلى العنصر .

كانت آراء نيتشه فى وقت من الأوقات موضع حديث المثقفين وغير المثقفين وظلت بعد وفاته يتمشدق بها المتفلسفون فى ألمانيا وانجلترا وعلى الأخص في أكسفورد طبقا للعبارة الشائعة « إن الكتّاب الألمان يموتون فى ألمانيا ويعيشون في أكسفورد» إلا أن نيتشه مالبث أن هاجم الكنيسة وجاهر بأنه رجل لادينى وأنه لايؤمن بالخالق وحقر الدين والمتدينين فى كتابه المسمي (Gotzendämmerung) ، وقدقرأ هذا الكتاب «بيلروث» وهو من أشهر أطباء ڤينا فقال إن هذا الكتاب من عمل رجل معتوه .

وفى أواخر أيامه ساء خلقه وضاق صدره وأصبح مثل «هتن» حاد الطبع لاذع القلم مر اللسان وهاجم الكثيرين من أصدقائه مثل فاجنر وبسمارك وسب زملاءه فى الجامعة بل سب أمه واشقاءه وانتهى به الأمر إلى مستشفى المجاذيب حيث بقى فيه بضعة أشهر عولج أثناءها بالزئبق فلما تحسن قليلا غادر المستشفى إلى منزله ليعنى به أهله الذين قاسوا من

شراسته الأمرين وأخيراً توفى مشلولا ساخطاً على صحبه وذويه لا يعتقد فى دين أو إله

هناك رجل آخر من عظماء الرجال دلت الشواهد أيضا على احتمال إصابته بالزهرى وموته من مضاعفاته وهذا الرجل هو «لينين» بطل روسيا الحديثة وزعيم جميع الشيوعيين حباه الله بالذكاء والدهاء والقدرة على العمل المضنى المتواصل وغير ذلك من الصفات التى قل أن تجتمع إلا فى عبقرى فذ مثل لينين . كان فى استطاعته أن يملى عدة خطابات فى وقت واحد وأن يرأس اجتماعات كثيرة متتالية وأن يبت فى الكثير من مهام الدولة فى أقصر وقت ، ولكنه كان أحيانا يصدر أوامر أو يقوم بأعمال تدل على أنه لم يكن طبيعيا . وكان فوق ذلك قاسيا كل القسوة على خصومه من أبناء وطنه ، يسوقهم إلى الموت زرافات لأقل سبب أو لمجرد الاشتباه . وربما كانت القسوة صفة من صفات الزعماء والدكتاتوريين جميعاً ولكن لينين كان من أغلظهم قلبا وأقلهم شفقة ورحمة

حدث يوما بينما كان أحد أساتذة الأمراض العصبية يلقى درسه على تلاميذه أن فتح باب المدرج ضابطان وأمراه

أن يوقف الدرس ويتبعهما . ولم يدهش هذا الأمر أحداً إذ كان ذلك وقتئذ مألوفاً جـــــداً . تبع الأستاذ الضابطين وبينما هم فى الطريق رجاهما أن يسمحا له بأن يتصـــل تليفونياً بزوجه فضحك الرجلان وأسرا له أنهما لا يريدان به شراً وأخذاه إلى أحد المطارات حيث أقلتهم طائرة خاصة إلى جهة نائية ثم أقلتهم سيارة إلى منزل ريفى عرف فيما بعد أنه منزل لينين زعيم جميع الشيوعيين وأن بطل روسيا مريض طريح الفراش

فحص الطبيب المريض (وكان محظوراً عليه أن يذكر شيئاً مما يرى أو يسمع) فشخص المرض ووصف الدواء ولـكنه بالنسبة لمركز المريض العظيم وللمسئولية الـكبيرة التى تلقى على عاتق الطبيب فى مثل هذه الأحوال أبدى رغبتـه فى الاستئناس برأى غيره من الاخصائيين فأجيب الى طلبـه واستُدعى الاخصـائيون من المان ونمسويين وغيرهم وكان الأجر الذى يتقاضاه الواحد منهم باهظا جدا قد يغنيه عن ممارسة الطب طول حياته ولم يحل ذلك دون استدعاء أكبر عدد منهم ، فحصوه جميعا وقرروا أنه مريض بمرض عصبى مستعص ربما كان نتيجة اصابة قديمة بالزهرى واتفقوا على

الدواء المناسب لمرضه ولكنه توفى بعد ذلك بفترة قصيرة ودفن فى مقبرة ضخمة (Mausuleum) بنيت وسط أهم ميادين موسكو ووضع الجثمان بعد تحنيطه فى تابوت زجاجي يؤمه القوم الى الآن ليشاهدوا رجلا من أعظم رجال التاريخ الحديث.

لم يكن لينين الزعيم الوحيد الذى قيل عنه انه أصيب بهذا المرض بل هناك كثيرون غيره من الزعماء الذين ظن القوم أن ما ابتلوا به من جنون العظمة كان مضاعفة أو عرضاً من الأعراض المتأخرة لهذا المرض نتيجة وصول جرثومته الى الجهاز العصبى.

والواقع اننا نبالغ كثيرا عندما ننسب بعض أنواع الشذوذ فى تصرف بعض العظماء الى الاصابة بهذا المرض ، فهناك من عظماء أوروبا من عاشوا قبل وصول الزهرى اليها وكان بهم من الشذوذ مالا يقل عن شذوذ من ذكرناهم من عظماء التاريخ الحديث. ولو أنهم عاشوا فى هذا الوقت لنسب شذوذهم الى هذا المرض. نذكر على سبيل المثال كاليجولا ونيرون من قياصرة روما ، وقد بدأ الأول حكمه سنة ٣٧ ميلادية والثانى سنة ٥٤.

بلغ من شذوذ كاليجولا أن عين جواده قنصلا وبنى له اصطبلا من المرمر ومدودا من العاج ومنزلا فخما أثثه بأفخر الرياش وزوده بمطبخ من الدرجة الأولى ليضيف زائريه والمعجبين به وذهب فى تكريمه لجواده هذا الى حد أن كان يدعوه أحيانا الى مائدته ويقدم له الطعام والشراب فى أوان ذهبية . وقد بلغ من إسرافه أن كان يذيب اللآلىء فى الخل ويضعها على مائدته وأن يبنى سفنه من خشب السدر ويكسوها بالذهب الخالص المرصع بالجواهر ويصنع شراعها من الحرير . وقد تنبأ له أحد العرافين قبل تولى الملك أن احتمال تتويجه لا يزيد على احتمال سكنه فى منزل بنى على لسان يمتد فى البحر خمسة كيلومترات ، فما أن نال المُلك حتى أمر ببناء منزل بهذا الوصف على لسان نصب فوق صفين طويلين من قوارب لا عد لها

أما نيرون فكان يعتقد أنه شاعر موهوب وموسيقار عظيم وأن الله قد حباه بقوة لا مثيل لها بل أنه هو الله نفسه وأمر الناس بعبادته . وبلغ من قسوته أن أمر بقتل أخيه واغراق أمه فلما نجت من الغرق أمر بقتلها . فضلا عمن قتلهم وعذبهم

من رعاياه وأخصائه وكان يجد لذة ومتعة فى قتلهم وتعذيبهم. وقد حرق روما وجلس على منصة عالية يعزف على قيثارته ويسلى نفسه بمشاهدة البلدة والنار تلتهمها ثم بنى لنفسه قصرا أسرف فى تأثيثه اسرافا منقطع النظير . وتفنن فى تعذيب المسيحيين وقتلهم زرافات ، وكان يلذ له أن يشاهدهم والحيوانات المفترسة تنهش أجسادهم . إلى غير ذلك من ضروب القسوة والشذوذ اللذين ان اتصف بهما أحد الآن لنُسب ذلك الى إصابته بالزهرى .

جرثومة الزهرى أو الحلزونى الأبيض

كان القسيسون فى القرن السادس عشر ينسبون الزهرى — كما نسبوا غيره من الأمراض المعدية الأخرى — الى غضب الله على الناس لكثرة خطاياهم . وذهب الفلكيون فى ذلك العصر إلى أنه يرجع الى تولد مواد سماوية تنشأ عن اتحاد النجم زحل مع المريخ ، ولكن الأطباء ما لبثوا أن أدركوا العلاقة الوثيقة بين هذا المرض وبين المسائل الجنسية ، ولما شاهد المتدينون منهم ان انتشار العدوى بين القساوسة لا تقل عن انتشارها بين

الأهالى زعموا أنها تحدث بين القساوسة من تلوث الهواء وبين الأهالى من الاختلاط الجنسى .

والواقع اننا لا زلنا نسمع مثل هذه الخرافات الى الآن فطالما سمع الأطباء من مرضاهم الشبان أن مرضهم السرى كان نتيجة الفزع أو الرسوب فى الامتحان أو ارتداء ملابس أحد أقاربهم ممن يأنسون فيهم الاصابة بهذا المرض إن حقا أو باطلا أو أى سبب آخر إلا المسائل الجنسية ، ويرجع ذلك إلى الخجل من هذه الأمراض وربما كان هذا الخجل من أكبر العوامل التى تؤدى إلى تفاقمها إذ يبطىء المريض فى استشاره طبيبه فيزمن المرض معه ويصعب علاجه .

أما الجرثومة المسببة للزهرى فقد بقيت غير معروفة إلى عهد قريب ، ففى عام ١٩٠٥ اكتشفها فى القرحة الزهرية طبيب ألمانى شاب يدعى «شودن» ثم مات هذا الطبيب بعد ذلك الاكتشاف العظيم بوقت قصير ولم يبلغ الثلاثين من عمره

والجرثومة من نوع يختلف عن الجراثيم الأخرى اختلافا كبيرا فهى حلزونية الشكل بيضاء اللون تسير بحركة تشبه حركة البريمة وربما كان هذا مما يمكنها من اختراق الجلد دون

وجود أى تشقق به ، ويساعدها على الحركة شكلها الحلزونى وبضع شعيرات دقيقة ملتصقة بها لم تُر إلا حديثا بواسطة الالكترون ميكروسكوب التى اخترعت منذ بضع سنوات والتى أظهرت هذه الجرثومة التى لا يزيد طولها عن جزء من مائة من الملليمتر والتى تتكون من خليـــة واحدة أظهرتها كشعبان طويل مشعب كأنة مكون من ملايين الخلايا ولا غرابة فباستطاعة هذه الآلة أن تكبر الأجسام مائة الف مرة أو أكثر

ومما يستحق الذكر أن طريقة تشخيص الزهرى عرفت قبل اكتشاف الجرثومة ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى « بوردى » (Bordet) البلجيكى ثم فازرمان (Wassermann) الألمانى وقد استعمل الأخير فى تحضير المادة اللازمة للتشخيص خلاصة كبد جنين مات من الزهرى ، وقد ظهر بعد اكتشاف الجرثومة أن الكبد فى مثل هذه الحالة يعج بالميكروبات وقد اتضح فيما بعد أن هذه المادة يمكن تحضيرها من أى عضو آخر خال من الزهرى ، واكتُشف ذلك عن طريق المصادفة إذ حدث أن أرسل أحد الأطباء مساعده إلى غرفة التشريح

ليحضر له كبداً من هذا النوع فأحضر خطأ كبداً عادياً ولما حُضِّرت الخلاصة منه أتت بنفس النتيجة، وإذ ذاك أسر المساعد إلى رئيسه بما فعل وأدت هذه المصادفة إلى اكتشاف هام وهو أن خلاصة أى عضو غنى بالمواد الدهنية تصلح لهذه التجربة .

وفى عالم الطب كثير من مثل هذه المصادفات التى لا يهيئها القدر إلا لفئة جمعت بين حسن الطالع وقوة الملاحظة والمقدرة على العمل، وقصة البنسلين أكبر شاهد على ذلك فقد اكتشف «فلمنج» العالم الانجليزى هذا الدواء العجيب عن طريق المصادفة إذ حدث عام ١٩٢٨ ان كان هذا الطبيب يجرى بعض الابحاث عن ميكروبات تدعى الكرويات العنقودية فحضر منها مزرعة تصادف أن لوثت بأحد الفطريات النادرة وصلتها من الهواء ولاحظ أن الميكروبات المجاورة لهذا الفطرى لم تنم ، واستنتج بما حباه الله به من قوة الملاحظة أن ذلك ربما رجع إلى أن هذا الفطرى يفرز مادة تقتل أو على الأقل تمنع نمو تلك الميكروبات وقد تحقق ذلك فعلا ، ولولا القدر الذي ساق الى فلمنج تلك الفصيلة النادرة من مئات الفصائل من

هذه الفطريات ولولا قوة الملاحظة التى حبـــاه بها الله لما اكتشف البنسلين .

العلاج

ذكرنا الدور الهام الذى قام به الزئبق منـذ مئات السنين فى علاج الزهرى ، والواقع أن الزئبق من أقدم الكيماويات التى استعملت فى علاج الأمراض الميكروبية وأكبر الظن أن الفضل فى اكتشاف فائدته فى علاج الزهرى يرجـــع الى العامة دون الأطباء ، وقد بقى الزئبق — أولا وحده ثم مع الجوايا كم — العلاج الوحيـد للزهرى لبضع مئات من السنين ، وهو وان خفف من شدة المرض لم يكن ليشفيه تماماً ، وهكذا استمر الزهرى كالكثير غيره من الأمراض المعـدية مرضا عضالا لا يُعرف له دواء ناجع حتى عهـد قريب إذ قام عالم اسرائيلى المانى يدعى ايرلش (Ehrlich) بتحضير مركب زرنيخى ثبتت فائدته فى علاج هذا المرض واعتبر العالم الطبى عمله هذا من أجلّ ما عمل فى تاريخ الطب الحديث وكوفىء عليه بمنحه جائزة نوبل للأبحاث الطبية .

كان ايرلش تلميذا من تلاميذ مدرسة كوخ العالم الألماني الذى وضع مع زميله الفرنسى باستير أساس علم الميكروبات كما نعرفه الان .

وقد بدأ ايرلش حياته العلمية بعدة أبحاث قيمة عن المناعة وأسرارها دلت على أنه باحث موهوب ، وقضى فى معمل كوخ عدة سنوات فيما خلا فترة قصيرة أمضاها فى مصر مستشفيا من مرض السل الذى أصيب به والذى ساهم فى الأبحاث التى أجريت عن جرثومته بقسط كبير إذ يرجع اليه الفضل فى الوصول الى صبغها وتمييزها عن غيرها من الميكروبات

عُيِّن ايرلش فيما بعد مديراً لمعمل المصل فى «شتجلتز» بالقرب من برلين ومنها نُقل الى فرنكفورت وهى بلدة غنية بصناعتها وعلى الأخص صناعة الصبغات ورجالهـــا وجلهم من الأسرائليين وأموالها وأينما وجد الاسرائليون توفر المال ، وكان شعار ايرلش فى الحياة أربع كلمات المانية تبدأ كل منها بحرف الجيم وهى Geld أى المال و Geduld أى الصبر و Geschick أى العمل أو المهارة و Gluck أى الحظ

اشتغل ايرلش فى معمله الجديد ورائد العمل والصبر والمال .

أما الصبر والقدرة على العمل المتواصل دون كلل فقد توفرا فيه وأما المال فلم يبخل عليه به إخوانه من بنى اسرائيل .

واصل بحثه فى المناعة وأسرارها الا أنه ما لبث أن تاقت نفسه الى تجربة المواد الكيمائية ومختلف الصبغات فى علاج الأمراض المعـــدية وانكب على دراسة الكتب والمجلات والرسائل العلمية التى اكتظت بها جيوبه وازدحم بها مكتبه ومقاعده بل وأرض غرفته فما نُشر فى الطب شىء هام أو غير هام الا ووعته ذاكرته .

سمع أن لافيران العـــالم الفرنسى ومكتشف طفيليات الملاريا قد تمكن من شـفاء عدوى التريپانوسوم فى الفيران بواسطة الزرنيخ فقد حقن عددا كبيرا من هذه الحيوانات بطفيليات من هذا النوع شديدة الضراوة ثم عالج نصفها بالزرنيخ وترك النصف الثانى دون علاج فشفى النصف الذى عولج وفنى النصف الثانى عن آخر فأر فيه .

لم يذهب لافيران فى بحثه الى أبعد من ذلك الا أن هذا كان كافيا لاثارة اهتمام ايرلش فأرسل فى طلب هذه الطفيليات من باريس ووصله خنزير غينيا معدى بها يحوى دمه الملايين

منها اذ لم تكن هنالك طريقة أخرى يمكن ارسال هذه الطفيليات بها . حقن مئات الفيران بدم ذلك الحيوان ثم جرب فى علاجها من مختلف الصبغات كل ما استطاعت مصانع فرنكفورت أن تقدمه اليه ، وقد كان عملا مضنيا شاقا ساعده على اتمامه شاب ياباني يدعى «شيجا» كان تلميذا من تلاميذ كوخ الذين كان لهم شأن كبير في تدعيم مدرسته .

بعد تجارب عديدة توصلا إلى صبغة تدعى التريپان الأحمر وجدا انها تقتل تلك الطفيليات فى دم الفيران التى حقنت بها ، ولكنها خيبت أملهما حينما جُربت فى علاج مرض النوم الذى يصيب الانسان والذى تسببه طفيليات من هذه الفصيلة .

أخيراً أهمل ايرلش الصبغات وعاد الى المركبات الزرنيخية وجرب أول ماجرب مركبا معروفا باسم أتوكسيل (Atoxyl) ، ويدل هذا الاسم على أنه مركب غير سام ولكنه فى الحقيقة كثيرا ما يسبب العمى ، فعمل ايرلش مع زملائه الكيمائيين على أن يعدّلوا فى تركيبه علهم يصلوا الى تحضير مركب قاتل لتلك الطفيليات دون أن يكون سما للانسان

وقد بلغ عدد المركبات التى حضروها وجربوها ستمائة وستة لم تتوفر الشروط المطلوبة الا فى المركب الأخير أى السادس بعد الستمائة ولذلك فقد سمى بهذا الاسم كما سمى أيضا باسم « سلفرسان » .

تم تحضير هـذا المركب عام ١٩٠٩ أى بعد اكتشاف ميكروب الزهرى بأربع سنوات ، ولما كان هذا الميكروب بالنسبة لمركزه فى مملكة الحيوان يقرب من طفيليات التريپانوسوم فقد رأى ايرلش أن يجرب مركبه الجديد فى علاج الزهرى وأجرى تجارب عديدة ساعده فى تدوين نتائجها الكثيرون من مشاهير الأطباء وأسفرت هذه التجارب عن نجاح باهر اذ أفلح هذا المركب فى علاج الزهرى كما لم يفلح مركب غيره من قبل وبذلك تم اكتشاف علاج لمرض تعددت طرق علاجه فكانت كلها — فيما خلا الزئبق — فاشلة عقيمة .

ولا زال هذا المركب الزرنيخى مستعملا الى يومنا هذا فى علاج الزهرى لم يدخل عليه سوى تعديل بسيط جعله أكثر ذوباناً وأسهل استعمالا ، ولا زال الزئبق يستعمل أيضا مع المركب الزرنيخى فالاثنان معا خير من الزرنيخ وحده ولو

أن عالما رومانيا يعمل فى باريس يدعى «لفاديتى» وجد أن البزموت يأتي بنفس النتائج التى يأتى بها الزئبق بل ويفضله فى حالات كثيرة ولذلك يكاد ينحصر استعمال الزئبق الآن فى علاج المضاعفات العصبية التى لا يبزه فى علاجها مركب آخر. أما مركبات اليود فتستعمل بكثرة فى الأدوار المتأخرة لما لها من التأثير على النسيج الليفى الذى يكثر فى هذه الأدوار.

وبعد اكتشاف البنسلين ونجاحه فى علاج كثير من الأمراض الميكروبية كان طبيعيا أن يجرب فى علاج الزهرى كما جُرب قبل ذلك فى علاج السيلان. فأتى بنتائج طيبة خصوصا إذا استعمل فى الدور الأول من أدوار المرض، والواقع أن هذا هو شأن المواد الأخرى المستعملة فى العلاج فكلما كان استعمالها مبكرا كلما أتت بنتائج أفضل، والتأخير فى العلاج يحسب دائما على المريض، والأدوار المتأخرة فى المرض قل أن تشفى تماما.

قلنا إن الزهري قد يصيب الجهاز العصبي، ويحدث ذلك غالبا بعد عدة سنوات من بدء المرض خصوصا فى الأحوال التى أهمل علاجها أو بدىء العلاج فى دور متأخر. فاذا استعملت

المركبات الزرنيخية بعد إصابة الجهاز العصبي وجدت قليلة الفائدة ، وقد اكتشف طبيب نمساوي يدعى «يَوْرِج» طريقة تتبع الآن كثيرا في علاج هذا الدور من أدوار المرض وتتوقف على خاصة معروفة عن جرثومة الزهري وهي أنها سريعة التأثر بالحرارة تقتلها درجة حرارة منخفضة نسبيا ، فهي — على النقيض من معظم الميكروبات — قلما تحتمل درجة أعلى من ٤٢° مئوية . وتنحصر هذه الطريقة في رفع حرارة المريض باصابته عمداً بالنوع الحميد من الملاريا الذى يسهل علاجه فيما بعد بالكينين ، ويجب على الطبيب في هذه الاحوال أن يحرص كل الحرص على انتقاء النوع الحميد من طفيلي الملاريا ليعدى به مريضه فقد حدث أن استعمل النوع الخبيث خطأ فكانت النتيجة عكس المقصود من العلاج إذ تخلص المريض نهائياً من متاعب الحياة ومن عذاب المرض فقد قتله طفيلي الملاريا قبل أن يقتله حلزوني الزهري .

لما وُجد أن علاج هذا الدور من الزهري بالملاريا الحميدة يأتي بنتائج طيبة جُرب رفع الحرارة بطرق أخرى عديدة (بيولوجية وغير بيولوجية) أسهل استعمالا وأسلم عاقبة وقد أصبحت الأجهزة

obeikandi.com

الكهربائية أكثرها الآن استعمالا .

بقيت لنا كلمة عن طرق الوقاية من الزهرى . إن أكثر ما استعمل لهذا الغرض من المركبات التى أشرنا اليها هى مركبات الزئبق وأول من أشار باستعمالها هو «متشنكوف» العالم الروسى وأحد تلاميذ پاستير .

ومن العوامل التى دعت متشنكوف إلى الاهتمام بهذا المرض علاقته بالشيخوخة فهو من أسباب الشيخوخة المبكرة وقد عُنى متشنكوف بهذه المسألة وقضى وقتاً طويلا فى البحث فيها فنسبها إلى الاصابة بالزهرى كما نسبها إلى سم تفرزه ميكروبات الأمعاء إلى غير ذلك من الأسباب التى اهتم بها الناس كثيرا والتى لم تسفر معرفتها للأسف عن إطالة أعمارهم

حدث أن فاز متشنكوف وزميله «رو» (Roux) المساعد الأول لپاستير بجائزتين ماليتين كبيرتين أنفقاهما عن آخرهما فى شراء بضعة قردة من نوع الشمپانزى وحاولا أن ينقلا مرض الزهرى اليها بعد أن أخفقا فى نقله إلى الحيوانات الأخرى وقد كانت تجربة موفقة من أولها إذ أنه بعد حوالى خمسة عشر يوماً من تلقيح خدش بسيط بالمادة الزهرية ظهرت

قرحة صلبة تشبه قرحة الزهرى في كل شيء وأمكن نقل المرض من حيوان إلى آخر بالطريقة نفسها ، ولكنهما فشلا طول الوقت فى العثور على جرثومته التي نال «شودن» شرف اكتشافها كما أسلفنا .

واصل متشنكوف أبحاثه فلقح أذن قرد بالمادة الزهرية وبعد أربع وعشرين ساعة استأصل الأذن ووضع الحيوان تحت الملاحظة لمدة طويلة فلم يظهر عليه عرض من أعراض الزهرى واستنتج من ذلك أن المسبب لهذا المرض أيا كان نوعه قد يبقى فى موضعه فترة من الوقت دون التغلغل فى سائر الجسم فاذا ما وفق الانسان إلى قتله فى موضعه بعد التعرض للعدوى مباشرة أو بوقت قصير فقد يسلم الجسم من المرض ،وكان طبيعيا أن تجرب لهذا الغرض مركبات الزئبق الذى كان فى ذلك الوقت المادة الوحيدة التى عرف أن لها تأثيراً مضادا على جرثومة هذا المرض فحضر مرهما يحتوى على ٣٣ فى المائة من الزئبق الحلو فى اللانولين الذى يمتصه الجلد بسهولة ولقح أحد القردة بالمادة الزهرية ، وبعد بضع ساعات عالج موضع التلقيح بهذا المرهم ثم ترك الحيوان عدة أسابيع لم

يظهر عليه أثناءها عرض من أعراض الزهرى ، فأعاد التجربة على عدة حيوانات أخرى وكانت كلهـــا تسلم من الاصابة بالزهرى وأخيرا أجرى هذه العملية أمام جمع كبير على طالب طب لقّحه بالمادة الزهرية كما لقح فى الوقت نفسه قردا بنفس المادة ثم عالج الطالب وترك القرد دون علاج فسلم الأول من المرض وأصيب الثانى به ، ولم يبق عنده شك فى أن هذا المرهم يقى من الزهرى إذا استعمل فى الوقت المناسب ، وذاع صيته واستعمله الكثيرون وهاجمه الرجعيون الذين اعتبروه وسيلة من وسائل المجون ومشجعا للفسق والفجور ، ولكن هذا لم يمنع الدول الكبري من الاعتراف به رسميا وتوزيعه على جنودها مفضلين ذلك على العدوى ومتمثلين برد متشنكوف على ناقديه الذين اتهموه بتشجيع الدعارة قائلا إنه اذا فشل المربى فليفسح المجال للطبيب .